العنونة في الخطاب النقدي عند بسام قطوس
مقاربة في نقد النقد

The Title in the critical discourse of Bassam Quttous
A critical study

دنيا دهينة[1]*، فتيحة كحلوش[2]

[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، مخبر مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب

do.deheina@univ-setif2.dz

[2] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، fatihakahlouche@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/02/14 تاريخ القبول: 2023/07/29 تاريخ النشر: 2023/12/28

ملخص:

إنَّ الطريق إلى وجهةٍ ما لابد لهُ من بداية حتمية، وعلى فرض أنَّ الطريق هو رحلةُ الكشف عن حقائق النصّ ومعانيه الغائبة، بدايتُه عتبةٌ مكثّفة الإيحاءات، كثيرةُ الإحالات على معاني تفرضها طبيعة التلقي بعد انتظارٍ منكسرِ الأفُق. هنا يكون العنوان علامة استفهام، فهل يُفهم النصُّ من عنوانه؟ وهل يكونُ النصُّ قراءةً محققةً للعنوان؟

في هذه الدراسة نسعى للكشف عن مُهمّة العنونة في تحقيق معنى الخطاب، وقد اخترنا كتاب "سيمياء العنوان" للناقد بسام قطوس نموذجاً لممارسة القراءة والتحليل بما تتطلّبه طبيعة الدراسة من قراءة سيميائية وآليات فهم وتأويل، وفي ختام البحث نصل إلى مجموعة من النتائج التي تلخّص تصوّراً عامّاً لاستراتيجيات قراءة العنوان في الخطاب النقدي للمؤلف، من منظور نقد النقد.

كلمات مفتاحية: *عنوان، علامة، نصّ، سيمياء، الخطاب النقدي.*

Abstract:

The following study is based on presenting the definition of the « Titles » which is posed in the critical discourse, and the main problematic includes the functions of the title by interpreting and analyzing them semiotically in the critical discourse.

So we have chosen « The Semiotics of the Title » of Bassam Quttous as a model for the analytical part of the study. In order to reach results that show the strategies of reading titles from the perspective of critical criticism.

* المؤلف المرسل : دنيا دهينة، الإيميل : do.deheina@univ-setif2.dz

***Keywords**: title; sign; text; semiotics; critical discourse.*

1. مقدمة:

إنّنا نعيش في لحظتنا النقدية الراهنة ضمن سيرورة من العلامات، ونحن في حقيقة هذا الواقع النقدي أجزاء متأصّلة في جوهر كلّ علامة، والأسئلة التي نطرحها باستمرار حول فكّ تشفير العلامات، والألغاز اللّغوية ومطاردة خبايا النصوص، هي في الحقيقة صورةٌ تحيل على توجهات فكرية ومعرفية تفرض نفسها علينا، وتلفت حدسنا النقدي إلى ضرورة البحث عن ذواتنا المتخفّية في صورة الآخر المسمّى بالنصّ. وفي اللّحظة نفسها، ندرك أنّ رحلة الكشف عن أسرار النصوص ودلالاتها، هي مسار محفوفٌ بالخبايا والأفخاخ، بدايته عتبةٌ دلالية يحتضنها النصّ ويمنحها في كثير من الأحيان الحقّ في تسميته، هي عتبة العنوان.

وهذه الإمكانية وجدت النور في كثير من الخطابات النقدية التي أولت اهتماماً جادّاً بمسألة العنونة، ووظائفها التي تتحدّد من خلالها لاحقاً أبعاد فهم النصوص وتحقيق دلالاتها. وفق استراتيجيات فهم وتأويل. ومن هنا، وقع اختيارنا على مؤلَّف بسام قطوس "سيمياء العنوان" لأجل مقاربة فكرة العنونة في الخطاب النقدي من منظور الناقد وتصوّره المعرفي والنظري من جهة ، ولتحديد مدى موافقة التنظير للممارسة الإجرائية في قراءة عناوين نماذج أدبية معينّة.

على هذا الأساس، يكون السؤال الذي يؤرّق هذا البحث، إشكال قياسي إلى حدّ ما، ونقد لما تمّت قراءته نقدياً من طرف مؤلِفِ الكتاب، فما مدى مطابقة المعرفة النظرية السيميائية لطبيعة الممارسة المحققة من قبل الناقد؟ هل فكّك فعلاً؟ أم هل زعم إعادة تركيب معاني العناوين؟ وهل حقّق قراءة فاعلة للعناوين انطلاقاً من الوظائف التي حددّها في فصول كتابه، أم يبقى إشكال ملامسة الحقيقة الثابتة للنص من أوّل عتباته تحدٍ قائم في مجال الخطاب النقدي.

ونهدف في هذه الدراسة للكشف عن طبيعة قراءةٍ نفترض مبدئياً أنّ عيارها الدّقة ومزاجُها الأصالة في تقديم نموذج يحتمل الاعتداد بالقراءات السابقة، أو يحمل ما ينبغي له من المعرفة النقدية اللاّزمة لتقديم نموذج مختلف ومغاير لما يتداوله النظام العام للخطاب النقدي.

2. الجهاز العنواني، المفهوم والوظائف

لقد حدّد "ليو هوك" (Leo Hoek) مفهوم العنوان بكونه: (مجموعة العلامات التي ترتسم في صدارة نصّ ما لتسميته ولبيان محتواه الإجمالي ولإغراء الجمهور المشاهد)[1] وقد ذهب شارل قريفال (Charles grivel) وهو من أوّل المهتمين بعلم العنونة، ثلاث وظائف أساسية يضطلع بها العنوان؛ وتتمثّل على التوالي في تسمية الكتاب، وتحديد محتواه أو مضمونه، وإضفاء القيمة عليه[2]. ولعلّنا في هذا المقام نتمسّك بآراء جينيت لتبيين مفهوم العنوان وتحديد وظائفه بما يقتضيه مفهومها العام، حيث نجده يقسّم العنوان إلى ثلاثة أقسام:[3]

1- العنوان الأساسي أو الرئيسي.
2- العنوان الفرعي.
3- التعيين الجنسي.

وقد عيّن للعنوان أربعة وظائف تتمثّل في:

1- التعيين.
2- الوصف.
3- الإغراء.
4- الإيحاء.

وسنأتي في المحطّات التالية إلى عرض طبيعة هذه الوظائف بدايةً من ترتيب المفاهيم وفق التصوّرات النظرية للمصطلح:

- **الوظيفة التعيينية:**

تبيّن جيرار جينيت (G. Genette) استناداً للوظائف الثلاث المذكورة سابقاً أنّها لا تحضر مجتمعةً في آن، وأنّ الوظيفة التعيينية وحدها القائمة في كلّ العناوين على اختلافها، وتأتي باقي الوظائف مكمّلة لها، ومن هنا ساد تعريف العنوان على أنّه اسم للكتاب يتوسّل به لتعيينه، وأولى العتبات المُفضية إلى عالمه[4].

إنّ تسمية النصّ تعني مباركته، فالعنوان هو اسم العمل، تماماً مثل أسماء العلم وأسماء المواضع في علاقتها بالأشخاص والمواضع التي تعيّنها، يهدف إلى التعرّف على العمل بكلّ

دقة وبأقل ما يمكن من احتمالات اللّبس. لذلك فإنّ الوظيفة الأولى للعنوان هي الوظيفة التعيينية.[5]

- **الوظيفة الواصفة:**

على اعتبار العنوان ملفوظاً لغوياً واصفاً، يحيط بالنصّ ويتجاوزه، يتلبّسه دون أن يخترقه لأنه يظلّ دوما على مستوى آخر، وهو كذلك بسبب المكان الذي يشغلُه[6]، والذي يفصله بصرياً عن النص. ولأجل هذا تتعيّن الوظيفة الثانية التي يضطلع بها العنوان، ونقصد الوظيفة اللّغوية الواصفة.

يعني الوصف/ Meta اشتقاقياً ما يُحيط بالشيء، لكن أيضاً ما يتجاوزه، وتعني النصّية الواصفة في تصوّر جينيت تلك العلاقة التي يُقال عنها عادة "التعليق"، التي توحّد نصاً بنصّ آخر يتحدّث عنه، بهذا التحديد تمكّن الوظيفة الواصفة للعنوان من وصف النص بواسطة ملمح من ملامحه[7]، الذي قد يكون في مستوى ما متعلّقاً بالمضمون عامّة، أو ببنياته السطحية والشكلية، أو بشكله ومضمونه معاً، أو بالتركيب بين كلّ ما سبق ذكره.

- **الوظيفة الإغرائية:**

يكون العنوان مناسباً لمّا يجذب القارئ المحتمل، وينجح لمّا يناسب النصّ، ويربط جيرار جينيت الوظيفة الإغرائية بالتأثيرات الإيحائية للعناوين، والتي تتعلق بالطريقة التي يمارس بها العنوان هذه الوظيفة، ومن جهة موازية يثير العنوان الإغرائي عن قصد أو بغير قصد سيرورات من التحليل السيميائي وأوجها من التأويل لفكّ اللّغز اللّذيذ للعنوان.

تتسع هذه الوظائف التي حدّدها جينيت بتوجّه بعض الدراسات التي أفادت في قراءة العناوين من وظائف اللغة التي حدّدها رومان جاكبسون (R.Jackobson) في كتابه (قضايا الشعرية)، فيتبيّن أنّ للعنوان وظيفة انفعالية ومرجعية وانتباهية وجمالية، وميتالغوية. وقد يكون له وظائف بصرية وأيقونية، وإيديولوجية[8].

1.2 القراءة السيميائية للعنوان:

إنّ كون النصّ نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤر الثقافة، لا ينفي احتمال أن ينشطر ويتشظّى في مهب قراءات تتضاعف بدورها إلى الأبد. وهكذا يصبح النص لعبة متحرّرة من الدوال المواظبة على إمكانية التدليل دون نهاية، متجاوزاً كلّ سياقاته الأوّلية، ثقافيّها

ومعرفيّا، والحال عينه بالنسبة للعنوان، فهو يخلق إرادته وقصديّته من حيث كونه "علامة" لا قصد لها إلاّ باختفاء منتجها، إذ تبدأ قصدية العنوان بتلاشي هذا الكائن وزواله، هذا الذي يسمى: المؤلّف![9]

فعندما يُفصل النصّ عن قصدية الذات التي أنتجته، فلن يكون من واجب القراء ولا في مقدورهم التقيّد بمقتضيات هذه القصدية الغائبة. والخلاصة وفق هذا التصوّر، أن اللغة تندرج ضمن لعبة متنوعة للدوال، كما أن النصّ لا يحتوي على أيّ مدلول متفرد ومطلق، ولا وجود لأي مدلول متعال، ولا يرتبط الدال بشكل مباشر بمدلول يعمل النص على تأجيله وإرجائه باستمرار. فكل دال يرتبط بدال آخر بحيث أن لا شيء هناك سوى السلسلة الدالة المحكومة بمبدأ اللامتناهي[10]

إنّ التحليل العميق والجاد للكلمات والعبارات باعتبارها دليل مجتمعي يمكّننا من فهم اشتغالها كأداة للوعي، حيث تستطيع هذه الكلمات بفضل هذا الدّور الاستثنائي الذي تؤديه أن تشتغل كعنصر أساسي مرافق لكلّ عملية إبداع نصّي.[11]

ونحن نستعمل الكلمات للتعبير عن الأشياء وعن الأحاسيس ولكننا في الحقيقة لا نرى تلك الأشياء ولا ندرك تلك الأحاسيس إلاّ من خلال الكلمات، والشيء الذي لا توجد له في لغتنا كلمة تعبر عنه فكأنما هو غير موجود وإن وجد في الكون المحيط بنا.

والسؤال الملّح باستمرار هنا لا يصلح حصره في تحديد العلاقة بين الكلمة ومدلولها وإنما يتجه التفكير صوب استيعاب الكلمة الواحدة لمدلولات غير محدودة تنتجها خلفيات دفينة في الذهن البشري المحكوم بقواعد لغوية ومنطقية يفرضها السياق النصيّ.

فالكلمة سلاح مؤثّر، وهي عندما تكون صادقة معبّرة تخترق كيان القارئ ونفسه، وتتسرب إلى أعماق فكره البعيدة[12]، فإنّها توقع به تأثيراً وترمي به إلى فضاءات من الفراغ والتفكير اللّامتناهي.

يمكن النظر إلى خاصية التكتّم التي تلتحف بها الكلمات لتحجب عن أسرارها، بوصفها علامات تبطن بما يفوق ما تظهر، فالنص على اعتباره نظاماً من العلامات، وفق هذا التصوّر يجوز النظر إلى منظومة النصّ بعيون الغموض النقدي، فالمعاني المحتملة أسرار يداريها النصّ عن القارئ، ولا سيما أن قلب النصّ هو معانيه التي توجهّها إشارات (signs) وأيقونات (icones) لغويّة لابد من مفاتيح سيميائية لصهر أقفالها.

يكتب جاك دريدا (J.Derrida) : (الآخر سرّ لأنه آخر)، فالآخر مهما كان هذا الآخر؛ نصّاً، كائناً، شيئاً،... هو مسعى البحث عن السرّ، إذ ينطوي على السرّ، على سرّه الذي يتوجّب احترامه، ومن دون ذلك لا يمكن للآخر أن يفضي لنا بسرّه. وإذا ذهبنا _حسب دريدا_ إلى هذا (الآخر) الذي يسمى (أدباً) فالسرّ الذي ينطوي عليه النص الأدبي يندرج في اللّعبة التي تديرها العلامات فيما بينها بعيداً عن بلادة الخارج النّصي؛ حيث يمكن أن تحدّد هذه اللّعبة بـ "النّصية" "textuality" أو نصّية النّص. وعليه فالنّصية هي التي تجعل النّص نصاً.

وبناء على هذا، تمنح النصيّة لكينونة النصّ القدرة على الاحتفاظ بسره الأبدي، فلا يمكن أن يكون ثمّة نصّ إلاّ إذا حجب عن قارئه قانون تركيبه وقواعد لعبته دون أن يبقى عصيّاً على الفهم، فالسرّ لابد له أن يعلن عن شيء من أسراره؛ ليستمر النّصُّ في اللّعب بالقارئ قراءة إثر قراءة[13].

حظي الخطاب الأدبي باهتمام كبير داخل منظومة التحليل النقدي باختلاف المناهج والاستراتيجيات النقدية والفلسفية؛ وقد لقيت المقاربة السيميائية حضوراً مميّزاً وفاعلاً داخل منظومة تحليل الخطاب، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن اهتمام سيميائيات النص وآليات التأويل بصوره المجملة والمفصلّة بالكشف عن الميكانيزمات التي تتبّعها العلامات في فضاء الخطاب لتحقق دلالات مختفية عن أعين القراءة الفوقية للغة النص المحمّل بالأحجيات والأسرار الدلالية.

وبسبب هذا الاهتمام أطلق السيميائيون العنان لحرية القراءة بحثاً عن النسق المُتخفّي وراء الإشارات أو الأنظمة الدلاليّة للشفرات والعلامات ورغبةً في كشف طرق إنتاج المعنى[14] وإنتاج الدلالات المنفلتة من قيود المعجم والمكلّلة بالغياب والتأجيل.

وتعدّ المقاربة السيميائية في مستواها الإجرائي الخاص حقلاً ثريّاً منفتحاً على النصوص الأدبية الشعريّة والسردية، بما تُتِيحُهُ للدّارس من إمكانات تأويلية طموحة، وآليات تحليلية مرنة، تُمكنّه من الوُلوج إلى ديوان العلامات بشتّى أشكالها وأنماطها ومستوياتها، بغية استكناه حقيقتها وإفضاءاتها الدّلالية الرامزة، واستنطاق طبيعة العلاقات الماثلة فيما بينها.

وبهذا فإنّ نظام العلامات النصيّة لا يكتفي بالمعطى اللّغوي الأوّلي فحسب، وإنّما يتّسع ليستوعب عناصر أخرى يُحيل إليها البُعد التأويلي للنّص[15]. وبهذا يكون موضوع السيميائيات

هو المعنى[16]. ويتحوّل سؤال القراءة من إرادة معرفة دواعي كتابة النصوص إلى الانصراف نحو معرفة طرق اشتغال المعنى وكيفيات صناعة المضامين.

2.2 كيف نفهم العناوين؟

إنّ العنونة هي استراتيجية يتّبعها المؤلف لتسمية نصه، وهو عنصر ضروري من بروتوكول الكتابة، ويتحكّم فهمنا للعنوان في معرفة صورة أوليّة عن مدار النص وتوجهاته، رغم كثافته الدلالية وقلّة ألفاظه، يوقع المؤلف في حيرة لحظة اختياره لتسمية نصه، فإن هو غمض وتكتّم بالمعنى الإيجابي حقق وظيفته بامتياز، وإن هو بان واستظهر دفع القراء عن الاهتمام بالنص للوضوح والملل. وتقتضي مقاربة العنوان الانطلاق من خطوات أساسية أربع،[17] وتتمثّل في: البنية، الدلالة، الوظيفة، القراءة السياقية الأفقية والعمودية.

ويعني هذا أنّ البنية تستوجب قراءة العنوان صوتيا، وإيقاعياً، وصرفياً، وتركيبياً، وبلاغياً، وأيقونياً. في المقابل تحصل الدلالة بتحقيق فعل القراءة المتبادلة بين العنوان والدلالة، (عنوان- دلالة، دلالة- عنوان)، ولابد من معرفة سيميائية هذا العنوان، وإلام يرمي؟ ومعرفة الدوافع النفسية والايديولوجية التي فرضت ببراءة أو عن قصد ليتمّ اختياره وتهميش غيره، ونمثّل في الرسم التوضيحي الآتي لهذه المسألة:

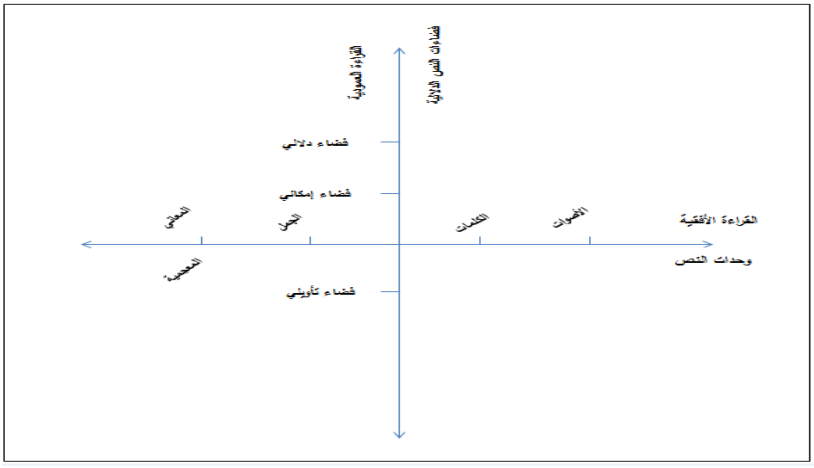

وبهذا الشكل التحليلي، تكون وظائف العنوان رموزاً وإشارات مشفّرة بنظام من العلامات الدّلة على فضاء من الاحتمالات المؤدية للمعنى، وتحديد هذه الوظائف يسهم في فهم

دلالات النص المتّصف بالغموض، ولهذا فإنّ أول عتبة تستقبل القارئ السيميائي حين رغبته في القبض على حقائق النصّ الثابتة والغائبة، هي لغز العنوان.

وفي هذا السياق، يرى محمد مفتاح أنّ أوّل الحيل التاكتيكية هي الظفر بمغزى العنوان، والمفهوم المحلّي الذي يستخدمه لهذا الغرض هو: من "تحت" إلى "فوق" (Bottom-Up)[18]، ونتفق معرفياً أنّ للشاعر (أو المؤلف) رؤية وفلسفة يرى من خلالها العالم وهي التي كانت وراء هذا النص الحدث، المنفتح- المنغلق، وهي المؤشرات والإشارات هي الدهاليز التي ترشد المتلقي إلى المعنى.

ويعني بهذا، أنّه يجب فهم معاني الكلمات المعجمية وبنية الجملة، ومعناها المركّب؛ أي من القاعدة إلى القمة، وعلى أساس هذا يتوقع ما يحتمل أن يتلوها من الجمل، أي من القمة إلى القاعدة.[19]

تقتضي مقاربة العنوان وتأويله مراعاة السياق المحلّي، وإلاّ تعسف المحلّل السيميائي في قراءة العنوان وتحليله[20]، ومن هنا أضحت القراءة السيميائية ضرورة ملحّة، يتحلى بها الإنسان القارئ بغية استنطاق النص، لتقوّله دلالات تلامسه أو تترجم إشاراته وفق سيرورات من التأويل والفهم، خاصة وأنّ السيميائية سترفعه خارج أسوار اللغة، وتحرّره في فضاء من العلامات[21].

ومن هنا تنهض الوظيفة السيميائية للعنوان، بمعنى أنّ العلامة على اعتبارها وحدة صغرى من البنية الداخلية للنص، تقول شيئاً وتعني شيئاً آخر، إذ تفاجئ العلامة اللغوية بموجب وظيفتها السيميائية القارئ بدلالة مخالفة لدلالتها السطحية والمتعارف عليها، عبر اللجوء إلى آليات التشبيه والاستعارة والإيحاء والترميز، وبهذا ينتقل العنوان من عالم واقعي وظاهر إلى الإيحاء والإحالة على عالم آخر محتمل.[22] ونوضّح هذه النقطة في الشكل التالي:

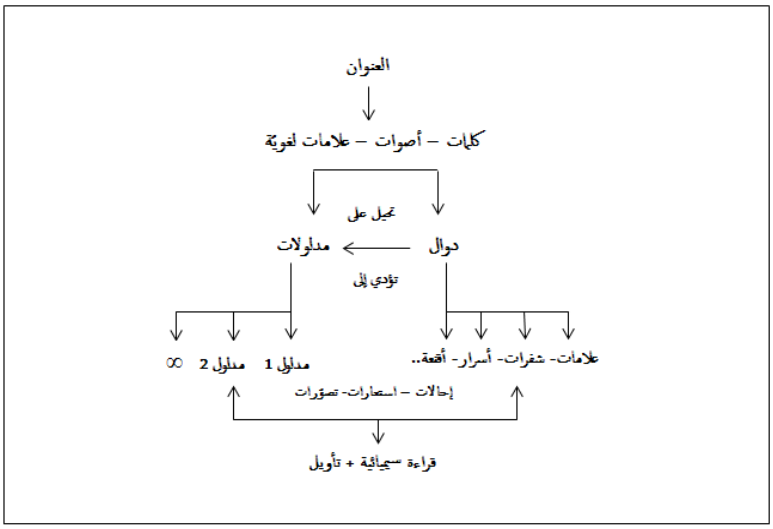

إنّ النتيجة التي يمكن الخروج بها على صعيد مسألة فهم العنوان، تقاس بمدى توجه الناقد أو القارئ بصفة أعم نحو التصوّر الصحيح للنص الموازي الذي يصنعه ليحقق قراءته وفهمه للنص انطلاقاً من رأسه، نظراً للموقع المهمّ الذي يحتلّه العنوان في هيكل النص، فهو أوّل العلامات بصرياً ودلالياً التي تقع فيها شرارة التصادم بين النصّ والمتلقي[23]، وعليه؛ فإنّ الكشف عن أسرار هذا المكوّن النصي يسوق القارئ لفهم جدل النص في حدّ ذاته ومنطقه الذي يقوم عليه وينبني على أساسه شكلاً ونظاماً ومضموناً.

3. القراءة السيميائية للعنوان عند بسام قطوس

جاء كتاب بسام قطوس "سيمياء العنوان" ضمن مشروعه النقدي الذي أصّل فيه لرحلة النظرية النقدية من الولادة إلى الاكتمال والموت، وقد تألف هذا الكتاب من ثلاثة فصول، خصّص فيه المؤلف الفصل الأول لإرساء المفاهيم النظرية المتعلقة بتأسيس السيمياء وتأسيس العناوين، وقدّم في محطّات تالية معالم لقراءة العنوان في الخطاب الأدبي على وجه الخصوص، وذلك في نماذج من المنجزين الشعري والسردي، شكّلت في مجملها فصلي الكتاب الثاني والثالث.

ويضمّ هذا الكتاب لمجموعة غير قليلة من القراءات والمؤلفات التي أنجزت لذات الموضوع، فقد سبق لدراسة العنوان وسيميائه عدد من القامات النقدية الغربية من مثل ليو هوك، وشارل قريفال، وجيرار جينيت، ومن النقاد العرب جهود محمد فكري الجزار، ومحمد

عويس، وجميل حمدواي، ورشيد يحياوي، ومحمود الهميسي وغيرهم من النقاد الذين أثروا هذا الموضوع تنظيراً وممارسة.

وأمّا المنهج الذي اصطفاه الناقد لعرض موضوعه فكان التوجّه نحو أطياف السيميائية، وقد صرح بذلك في مقدمة كتابه، فيقول: (لقد رأيت أنّ التسلّح بالقراءة السيميائية قصد جسّ العنوان بوصفه أول مفتاح إجرائي نفتح به مغالق النصّ، وننطلق منه إلى النصّ الأكبر، أمر في غاية الأهمية ومطلب علمي يُقصد)[24]

والقراءة السيميائية في تصوّره: (لا تلغي القراءات السابقة عليها، وإن كانت تفيد منها وتحتويها، فهي بتركيزها على قراءة أعماق الدّال، بحثاً عن الأنظمة الدلالية للشفرات والعلامات وطرق إنتاج المعنى، لتفتح المجال واسعاً لفعالية القراءة، وحفز الطاقة التخييلية لدى القارئ ليشارك بفكره وثقافته في إبداع النصّ من خلال كشف مخبوئه، وتفتيق دلالاته)[25] وقد وقع اختياره على "سيمياء" مصطلحاً في قراءته النقدية.

وفي تأسيسه لمصطلح العنوان، حدّد الناقد أهم خصائصه ووظائفه بما هو إشارة سيميائية تأسيسية، تدفع لإعادة قراءة شيء كان مألوفاً لدى المتلقي، علّه شيء من ثقافته وايديولوجيته، فيمارس سحره وإغراءه ليدفع القارئ إلى صنع معنى جديد يمليه فعل القراءة والتأويل[26].

واستناداً لهذا الطرح نناقش في المحطّات التالية مجموعة من النماذج من بين تلك التي خصّص الناقد فصولاً لقراءتها وتفكيكها في مؤلّفه النقدي، لمعرفة مدى تحقّق شروط الممارسة السيميائية في الخطاب النقدي للمؤلف، متكئين في قراءتنا على مطابقة المعارف النظرية المقدمة في الشق النظري من الكتاب مع الشق الإجرائي له أين مارس الناقد نواياه النقدية في تقديم قراءة سيميائية في عناوين من المنجز الشعري والسردي على الترتيب.

1.3 العنوان في المنجز الشعري:

يتعيّن في تتبّع العناوين داخل "سيمياء العنوان" لبسام قطوس البحث في بنياتها التركيبية، وأنظمتها الإشارية، للتعرف على وظائفها الأساسية ومن ثمّ الكشف عن إحالاتها الدلالية التي تفتح آفاقاً من التلقي والتأويل حسب تصوّر الناقد. ولأجل هذا عمد قطوس

في مقاربته إلى تقسيم العناوين الشعرية حسب وظائفها، وعلى هذا الأساس نحدّد وظائف العنوان حسب ورودها في النصّ النقدي للمؤلف في الآتي:

1.1.3 العنوان كسراً للتوقّع:

إنّ أول ما يتلقاه القارئ في ممارسته لفعل القراءة هو عتبة العنوان، ولابد لهذا العنوان من توفره على ميزات يقرر المتلقي على إثرها مواصلة القراءة أو التخلي عن ملاحقة الدلالة من الأساس، أهمها الغموض، والخروج عن المعاني المباشرة، والمبالغة في التحجّب عن المعاني المبتذلة والمتوقعة، وكسر كلّ الاحتمالات المشاعة في الأذهان، وهو ما يرمي بالعنوان في فضاء من الشعرية والفراغ المحتمّل للدلالة الغائبة. ويمثّل الناقد لهذه الوظيفة بقراءته لعنوان "حليب أسود" من ديوان الشاعر المتوكل.

النصّ	العنوان	الصفحة
ديوان الشاعر الفلسطيني "المتوكل طه"	حليب أسود	54

وبالعودة إلى الناقد، يصنَّف هذا العنوان ضمن العناوين التي تكسر أفق التوقع وتخيّب المعاني المباشرة لدى القارئ؛ ذلك أنّ العنوان هنا، (حليب أسود) هو مصادرة على مستوى اللّون، وعلى مستوى ذهن المتلقي، وبقراءة سيميائية لدلالة هذه اللّعبة اللغوية والذهنية.

يضع الناقد صورة متضادّة تحمل قراءة لما تؤول إليه علامات العنوان الرئيسي، حيث أردف في تتمّة قراءته السيميائية لدلالة العنوان، عنواناً فرعياً تمثل في: (هارون الرشيد والبرامكة)، وقد أورده الشاعر في ديوانه، ليكون موجّها مساعداً في تعيين دلالة العنوان الرئيس، من طرف الناقد بسام قطوس.

ولعلّ قصد الشاعر المتوكل طه أن ينير ذهنية المتلقي وتقريبه من دائرة المعاني التي ينبغي أن يراها، دون أن يترك مسافة تسحب القراءة خارج حدود النص وتزج به نحو الضياع في التأويل وكثرة الاحتمالات، فهو حسب الناقد أصاب حين ذيّل عنوانه الرئيسي بالعنوان الفرعي الذي يُظهر في مرحلة لاحقة للقارئ أنّه خلاصة استقرائية ذاتية لمجمل تجربة هارون

الرشيد مصوّغة ومخلقة شعرياً، ليكون شريحة إنسانية ممثلة لصورة ثقافية محدّدة، تظهر المخبوء خلف حجاب الذات والسلطة.

والذات هنا تعيش صراعا بين ما يناقضها ويماثلها من أخٍ شاركها ذات الحليب النقي في زمن مضى، حين لم يكن السواد قد لوّث وسلب من حال الشاعر النقاء والحياة. وهو ما يوضحه سيميائياً المربع الآتي:

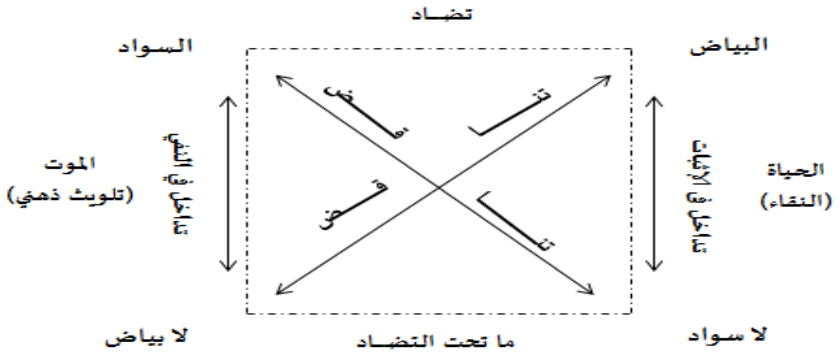

فتكون الحياة حاضرة برمز الحليب الذي يحيل عليها، ويشكل السواد علامة على الموت، والعنوان بمتناقضاته يدفع إلى التأويل وإلى السؤال المستمر بدءا من الناقد وثقافته، والقارئ عموما والنصوص الغائبة المحمولة في ذهنيته، مروراً بعتبات نصيّة فرعية تقف بالتوازي مع النص في أماكن استراتيجية محدّدة يفرضها صاحب النص، والنصّ والسياق الذي تفرضه المعاني الغائبة.

2.1.3 العنوان مراوغاً/ شعرية المراوغة:

خطت العنونة في الخطاب الأدبي الراهن خطوات كبيرة نحو إنتاج عناوين تتمتّع بخصائص تمنحها الميزة النصيّة، أي ما يصبح العنوان بموجبها نصاً له جماليته وشعريته، وطاقته الدلالية غير المنتهية، من حيث أنّ النصية هي خاصية القدرة على المراوغة والمخاتلة والابتعاد عن الحكم المطلق بحقائق ثابتة في القراءة النقدية.[27]

النصّ	العنوان	الصفحة
ديوان "عبد الرفيع الجواهري"	شيء كالظل	67
	صورة نملة	68
	النشيد البيروتي	68
	نصّ مراكش	69
	حفريات في ذاكرة رجل اسمه مسعود	70

3.1.3 العنوان نصّاً/ النصّ الموازي:

يصرّح الناقد برغبته في تفكيك عنوان الشاعر محمد عفيفي "ديوان رباعيات الفرح"، وقراءته للعنوان كونه نصاً موازياً لا تبشّر الباحث مسبقاً بالوصول إلى الحقيقة بشيء، فالعنوان ذو حمولة فكرية ومرجعية، وهو بهذا في موقف موازي لما يحمله النصّ من حقائق تمليها سياقات فكرية ومعرفية، ويقف القارئ هنا في حيرة من أمره، أيسير من العنوان إلى النص؟ أم من النص نحو العنوان؟ لطرق أبواب الدلالات الغائبة بين قطبين متكاملين تتضمّن كلّ ذات منهما معضلة وصمت الآخر.

النصّ	العنوان	الصفحة
ديوان رباعيات الفرح "محمد عفيفي"	فصل المبتدأ المؤخر	72

4.1.3 العنوان لافتة، أم ايديولوجيا !

سميت بعض القصائد والدواوين الشعرية بعنوانات تحيل على قضايا اجتماعية وسياسية وايديولوجية في واقع الكاتب، وعلى الرغم من بساطة هذا القول، إلا أنه من الصعب تحديد بعضٍ من وظائف العناوين التي تصنّف وفقا لهذه الأغراض التي تؤديها.

وقد واجه هذا اللّبس تقسيمات وتفريعات الناقد بسام قطوس في وصفه للعنوان باللافتة، وكونه رمزا للايديولوجيا وعلامة ثقافية تحيل إلى مسائل مجتمعية وفكرية ما، وهذا ما نلاحظه من خلال قراءة تقسيمه المتفرع لعناوين نعتقد أنه من الأنسب دمجها وتركيبها تحت

وظيفة مشتركة تجمعها العنوان بوصفه ايديولوجيا. ونوضح التقسيمات التي أدرجها الناقد على الوجه الآتي:

- نموذج 01:

النصّ	العنوان	الصفحة
قصيدة "عبد الله البردوني"	سندباد يمني في معهد التحقيق	78

- نموذج 02:

النصّ	العنوان	الصفحة
عناوين "محمد بسيسو" الشعريّة	لن يمروا، لمن الشارع، استمعوا لي، كيف لم يسقطوا، لن تدخلوا بيروت، المعركة...	90

- نموذج 03:

النصّ	العنوان	الصفحة
قصيدة "سميح القاسم"	أخوة	92

ولعلّ الناقد مدرك لهذا التركيب وعدم الانفلات بين وظائف العنوان المتكاملة، حيث أشار إلى نموذج آخر يكمّل الصورة المعبرة عن العنوان كونه لافتة، وايديولوجيا ومفارقة، حيث أدرج في ذات الخانة عنوان ديوان "نادر هدى" (كذلك)[28] الذي يعدّ نوعاً من المفارقة المخبوءة لنص مسكون بالتجربة ضمن رؤية تجسد قيم الثقافة وتمجّد راية الايديولوجيا والاحتفاء بالذّات.

5.1.3 العنوان قناعاً:

إنّ خاصية الشعر تحببه في التنكّر والتخفي خلف أقنعة من الرموز والإشارات المتمنّعة على المتلقي، ما يجعل العنوان أول المفاتيح لفكّ ألغاز النص وإفشاء أسراره. وقد عالج قطوس

في هذه الوظيفة صنفين من النماذج، تمثّلت في عناوين ودواوين شعرية، فمن الصنف الأول نجد:

النصّ	العنوان	الصفحة
ديوان "أدونيس"	أغاني مهيار الدمشقي	96

أمّا الصنف الثاني فبيّن فيه تكثيف النصّ في عنوان:

النصّ	العنوان	الصفحة
قصيدة "بدر شاكر السياب"	عكاز في جحيم	101

6.1.3 العنوان رمزاً للاستحالة:

ولعلّها من العنوانات التي تقيم قطيعة مع إحالتها وتتصف بالرمزية التي تحتاج إلى بعض تلطّف في التأويل في نظر الناقد.[29] فكأنّ العنوان في هروب دائم من تقديم جواب عمّا يكتنفه من أسرار في ألفاظه البائنة، فتجده في خصام مع إحالته، متحفظاً عن مرجعياته، متكتما عن أماكن مفاتيح النصّ، فلا سبيل لولوج عالم النصّ إلى بالقراءة العارفة والاحتكام إلى التأويل. ونعرض في الجدول الآتي للنموذج الذي قدمه الناقد في قراءته للعنوان:

النصّ	العنوان	الصفحة
ديوان "محمود درويش"	جدارية محمود درويش	109

وقدّم الناقد تصوّره هذا بعد قراءته لمحاورة الشاعر محمود درويش للموت، فظاهر الحديث والتحدي هو حوار معه، في حين هو حوار مع الحياة واستحالة لمصير الموت المؤكد، والحياة ذات، وموضوع، ولغة، وهوية، وكيان، فالحوار الذي تخلّده الجدارية هو حوار متناقضات، بين الحياة والانتصار وما يوازي فكرة الموت، وبين الوجود والعدم من جهة، وبين الفهم وتلقي رسالة النصّ وعنوانه من جهة أخرى.

2.3 العنوان في المنجز السردي:

إنّ التأمل في عناوين المنجز السردي يفصح عن مدى اهتمام الروائيين بنصيّة العنوان السردي، مضاهاة لشعرية العنوان في فاتحة القصائد، لما يكتنفه من غموض واستعارات، حتى يبدو أكثر إغراء وأشد أسرا للمتلقي، وعلى هذا الأساس يفرض العنوان السردي نفسه كنص آخر، ممعن في نصيّته، له قوانينه الخاصة وتركيبته المشفّرة التي تفرض القراءة المضاعفة على القارئ في أولى عتبات التحليل.

وليس العنوان مكونا طارئا على السرد بقدر ما كان لافتة مميزة لكينونته، ولهذا لم تكن العنونة الحديثة والمعاصرة إلاّ مضاعفة التسمية، والإصرار عليها، لتتمتع العنونة السردية بخصوصية نصية لها فرادتها ومراميها وشعريتها[30].

جاء الفصل الثالث والأخير من مؤلف بسام قطوس النقدي ليكون إيضاحاً لرؤية المؤلف من العنونة في المنجز السردي الروائي، فينطلق من تحديد دلالة العنونة في المتخيّل السردي، ثم يعالج العنوان بوصفه إحالة، ثم بوصفه عنواناً للشعرية وينتقي لذلك رواية "أحلام مستغانمي" ذاكرة الجسد، وقدم قراءة تدنو من الجمالية والأسلوبية غير بعيد عن ممارسته لفعل التلقي، ثمّ يركز على دراسة "العنوان مكاناً ويمثل لذلك بمجموعة من عناوين الروايات التي اتخذت من أسماء الأماكن عنوانا صريحاً ومحيلاً على أفضية مكانية بذاتها ولذاتها.

ويأتي الناقد إلى دراسة مجموعة من العنوانات لروايات جزائرية التي صنّفها حسب تصوّره في كونها أمثولة رمزية وإحالات مرجعية، لتكون نماذجه في ذلك ثلاث روايات عناوينها على التوالي: "فتاوى في زمن الموت"، "الشمعة والدهاليز"، ورواية "الزيني بركات". ليصل إلى عدّ العنوان سخرية وعبثاً نصياً، ومتناصاً.[31]

4. خاتمة:

إنّ موضوع العنونة هو العتبة الأولى التي تصادف القارئ والناقد في ممارسته لفعل القراءة والتحليل، فالعنوان امتداد للنص، كما هو ارتداد عنه، وهو طاقة دلالية مكثفة تخبر عن النصّ بقدر ما تخفي، وتشي عن أسرار المعنى بقدر ما تغري القارئ للقيام بالتحليل

والتأويل. وممّا تقدّم، يكمن تلخيص أهم النتائج التي أفضت إليها هذه الدراسة في النقاط الآتية:

- يمكن القول بأنّ العنوان في المحصلة هو ممّرٌ يشق القارئ من خلاله طريقه نحو عالم النص الداخلي، من حيث كونه علامات تقبل التأويل والقراءة.
- إنّ سمة النقص والتكتم التي ترغب بها العناوين، تجعلها أكثر إيحاءً وإغراءً من كونها بسيطة، ومكتملة، ومفتضحة أمام المتلقي.

- لا يحتاج العنوان انطلاقاً من وظائفه المذكورة إلى إتمام نقائصه أو الميل إلى دفّة الوضوح، فهو مكتمل بنقصه، ومضيء في عتمة النص بإشاراته السابحة في فلك من الأنظمة العلاماتية المنفتحة على الإحالة والتأويل.

- إنّه من الصعوبة بمكان، تحقيق قراءة كاملة شاملة للعنوان وفق آليات تحليل الخطاب على اختلافها وتكاملها، فما تقرُّه وظائف العنوان تبقى احتمالات فكرية واردة، تمثّل في صورتها العامة استراتيجيات تجسد الأبعاد الوظيفية للعناوين، وإن أفضت إلى أبعاد الدلالات النصية فإنها تبقى حلقة من سلسلة مترابطة، تنتظر المزيد من الدراسات الجادة والتأملات النقدية الواعية، وتبقى احتمالات ممكنة تقبل التهميش كما توافق الاختيار بما تمليه القراءة وضوابطها وآلياتها المتحوّلة باستمرار.

الإحالة والتهميش:

[1] ضحى المصعبي، الكتابة والتناص في كتاب الحب لمحمد بنيس، الدار التونسية للكتاب، تونس، ط1، 2014، ص72

[2] المرجع نفسه

[3] جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، العدد 03، 1997، ص 106

[4] المرجع نفسه

[5] عبد الحميد بورايو، وظائف العنوان عند جوزيب بيزاكامبروبي، بحوث سيميائية، المجلد 4، العدد 5، ص47

[6] المرجع نفسه، ص52

[7] المرجع نفسه، ص50

[8] جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة،1997، ص 100

[9] ينظر: خالد حسين حسين، في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين، دمشق، ط1، 2007، ص 101

[10] أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص 125

[11] ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986، ص23

[12] ينظر: وليد قصاب، مقالات في الأدب والنقد، دار البشائر، دمشق، ط1، 2006، ص 64

[13] خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، دراسات أدبية، دمشق، ط1، 2008، ص 36-37

[14] بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، دار فضاءات، عمان، ط1، 2016، ص 159

[15] ينظر: نور الدين دحماني، سيميائية الترابط النصي في الخطاب القصصي القرآني، قصص سيدنا موسى أنموذجاً، محاضرات الملتقى الدولي السابع السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 29-30-31 أكتوبر 2013، ص 65

[16] بولفعة خليفة، سيميائية الفضاء في رواية الصحراء عند إبراهيم الكوني، محاضرات الملتقى الدولي السابع السيمياء والنص الأدبي، ص 261

[17] جميل حمداوي، السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، مطبعة الوراق، عمان، الأردن، ط1، 2011، ص 282

[18] ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1990، ص 71-72

[19] جميل حمداوي، السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص 282

[20] المرجع نفسه، ص 282

[21] ينظر: حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، منشورات دار الأديب، الجزائر، 2007، ص52

[22] خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، ص51

[23] ينظر: خالد حسين، شؤون العلامات، ص 100

[24] بسام قطوس، سيمياء العنوان، دائرة المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص 26

[25] المرجع نفسه، ص 24

[26] المرجع نفسه، ص 36

[27] ينظر: خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، ص 48-49

[28] المرجع نفسه، ص 93

[29] المرجع نفسه، ص 107

[30] ينظر: خالد حسين حسين، في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، ص 304

[31] مصلح النجار، سيمياء العنوان لبسام قطوس: مراجعة علمية، مجلة سيميائيات، المجلد 4، العدد 3، ص 269

قائمة المراجع:

أولاً: الكتاب العربي الحديث:

- أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2004.
- بسام قطوس، سيمياء العنوان، دائرة المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، 2001.
- بسام قطوس، دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات، دار فضاءات، عمان، 2016.
- جميل حمداوي، السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، مطبعة الوراق، عمان، الأردن،2011.
- حبيب مونسي، نظريات القراءة في النقد المعاصر، منشورات دار الأديب، الجزائر، 2007.
- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين، دمشق، 2007.
- خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، دراسات أدبية، دمشق، 2008.
- ضحى المصعبي، الكتابة والتناص في كتاب الحب لمحمد بنيس، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2014.
- محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1990.
- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، تر: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، المغرب، 1986.
- وليد قصاب، مقالات في الأدب والنقد، دار البشائر، دمشق، 2006.

ثانياً: المقالات:

- حمداوي جميل، 1997، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، العدد 03، ص 106.
- بورايو عبد الحميد، 2009، وظائف العنوان عند جوزيب بيزاكامبروبي، بحوث سيميائية، المجلد 4، العدد 5، ص 47.
- النجار مصلح، 2008، سيمياء العنوان لبسام قطوس: مراجعة علمية، مجلة سيميائيات، المجلد 4، العدد 3،ص 269.

ثالثاً: المداخلات:

– خليفة بولفعة، 29–30–31 أكتوبر 2013، سيميائية الفضاء في رواية الصحراء عند إبراهيم الكوني، محاضرات الملتقى الدولي السابع السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

– دحماني نور الدين، 29–30–31 أكتوبر 2013، سيميائية الترابط النصي في الخطاب القصصي القرآني، قصص سيدنا موسى أنموذجاً، محاضرات الملتقى الدولي السابع السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

المراجع بالأحرف اللاتينية:

1. Umbirtū Īkū, al-ta'wīl bayna al-sīmiyā'īyāt wāltfkykyh, tarjamat : Sa'īd Bingarād, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, Bayrūt, Lubnān, 2004.
2. Bassām Qaṭṭūs, Sīmiyā' al-'Unwān, Dā'irat al-Maktabah al-Waṭanīyah, 'Ammān, al-Urdun, 2001.
3. Bassām Qaṭṭūs, Dalīl al-naẓarīyah al-naqdīyah al-mu'āṣirah Manāhij wtyārāt, Dār Faḍā'āt, 'Ammān, 2016.
4. Jamīl Ḥamdāwī, al-Sīmiyūlūjīyā bayna al-naẓarīyah wa-al-taṭbīq, Maṭba'at al-Warrāq, 'Ammān, al-Urdun, 2011.
5. Ḥabīb Mūnsī, naẓarīyāt al-qirā'ah fī al-naqd al-mu'āṣir, Manshūrāt Dār al-adīb, al-Jazā'ir, 2007.
6. Khālid Ḥusayn Ḥusayn, fī Naẓarīyat al-'Unwān Mughāmarat ta'wīlīyah fī Shu'ūn al-'Atabah al-naṣṣīyah, Dār al-Takwīn, Dimashq, 2007.
7. Khālid Ḥusayn, Shu'ūn al-'alāmāt min al-Tashfīr ilá al-ta'wīl, Dirāsāt adabīyah, Dimashq, 2008.
8. Ḍuḥá almṣ'by, al-kitābah wa-al-tanāṣṣ fī Kitāb al-ḥubb li-Muḥammad Bannīs, al-Dār al-Tūnisīyah lil-Kitāb, Tūnis, 2014.
9. Muḥammad Miftāḥ, Dīnāmīyat al-naṣṣ, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, al-Dār al-Bayḍā', al-Maghrib, 1990.
10. Mīkhā'īl bākhtīn, al-Mārkisīyah wa-falsafat al-lughah, tarjamat : Muḥammad al-Bakrī wymná al-'Īd, Dār Tūbqāl, al-Maghrib, 1986.
11. Walīd Qaṣṣāb, maqālāt fī al-adab wa-al-naqd, Dār al-Bashā'ir, Dimashq, 2006.
12. Ḥamdāwī Jamīl, 1997, al-Sīmiyūṭīqā wāl'anwanah, 'Ālam al-Fikr, al-'adad 03, p 106.
13. Būrāyū 'Abd al-Ḥamīd, 2009, waẓā'if al'unwān 'inda jūzyb byzākāmbrūby, Buḥūth sīmiyā'īyah, al-mujallad 4, al-'adad 5, p 47.
14. al-Najjār Muṣliḥ, 2008, Sīmiyā' al'unwān libassām Qaṭṭūs : mrāja'ah 'ilmīyah, Majallat sīmyā'īyāt, al-mujallad 4, al-'adad 3, p 269.

15. Khalyfah būlafʿah, 29-30-31 uktūbar 2013, symyā'yt al-faḍā' fī rwāyt al-ṣaḥrā' ʻinda Ibrāhīm al-Kūnī, Muḥāḍarāt al-Multaqá al-dawlī al-sābiʻ al-sīmiyā' wa-al-naṣṣ al-Adabī, Jāmiʻat Muḥammad Khayḍar, biskrah, al-Jazā'ir.
16. Daḥmānī Nūr al-Dīn, 29-30-31 uktwbar 2013, symyā'yt al-Tarābuṭ al-naṣṣī fī al-khiṭāb al-qiṣaṣī al-Qur'ānī, qiṣaṣ syydnā Mūsá unmūdhajan, Muḥāḍarāt al-Multaqá al-dawlī al-sābiʻ al-sīmiyā' wa-al-naṣṣ al-Adabī, Jāmiʻat Muḥammad Khayḍar, biskrah, al-Jazā'ir.